نائمة. عندما كانت أحلامي لا تنتهي، وثقتي بها تزداد يومًا بعد يوم.»

«لقد تعبتُ من الحياة أيّها الشيخ، من تلك القضبان الزجاجيّة التي تحاصرني وتعلن موتي القريب. دعني ألقِ نظرة على ذاك الشابّ لأبوح بحبّي له وازدرائي بأحلامه وطموحاته.»

علا في الغرفة ضحكٌ فيه بحّة.

« إذهبْ يا بنّي! عجّل اللهُ في شفائك وانحسار دائك. أوَيعقل أن أُريك نفسك، وأنت هنا بلحمك ودمك؟ لا بُدّ أنّك جُننتَ؛ فليس هذا بمقدور إنس أو جنّ.»

لم أنبس بكلمة أو أعترض على منطق الشيخ الغريب. وما شعرتُ إلاّ وأنا أركض في الزقاق الذي أتيتُ منه. وإذ توقفتُ قليلاً لألتقط أنفاسي، أدركتُ فجأةَ أنّ صاحبي يجلس في أحد المقاهي ينتظرني وهو يرشف شايًا أسود. أومأ إليّ فاقتربتُ ثم جلستُ إلى جانبه.

- أخبرني، كيف كانت الرحلة؟

- لم أجرؤ على الدخول، قلتُ كاذبًا.

- لطالما أدركتُ أنك لا تملك الجرأة أو سعة الخيال للإقدام على مثل هذه الأمور، قال مشاكسًا.

صمتنا لبرهة. رفع كأس الشاي: «فلنشربْ نخبَ الماضي الذي لن يعود.»

«بل فلنشربْ نخبنا،» قلتُ مقاطعًا، وطلبتُ كأسًا من الشاي الساخن.

يستأنف هذا العمل، بخبرة فنّيّة عاليّة، تقاليد «رواية الأجيال» التي تمزج بين حقبة تاريخية واسعة، من تاريخ مصر، والزمن الإنسانيّ الذي يتكشّف في مصائر شخصيّات مختلفة. تعود هذه الرواية، وباقتصاد لغويّ مدهش، إلى بدايات القرن التاسع عشر، وتتوقّف في الزمن الراهن الذي نعيش: وهي لا تقصد التاريخ لذاته، وإنْ كانت تقبض على ما هو أساسيّ فيه، بقدر ما تجعل منه مرجعًا «خافتَ الصوت»، يعلن عن تحوّلات الإنسان وأحاسيسه ومآسيه، التي تأخذ أشكالاً كثيرة.

ربطت الرواية بين أحوال الريف المصريّ، المحكوم بتقاليد قاهرة، ومأساة الأنسان، بصيغة الجمع، التي تتكشّف في التداعي والصدام المفاجئ مع غير المتوقّع، وفي الحظ العاثر الذي لا يقبل التفسير.

سرد الروائيُّ حكاياته بأسلوب متميّز، خالقًا شخصياتٍ واضحَة الملامح، تتفاعل جميعًا، منتجة خطاباً روائيًا خصيبًا ومتعدد المستويات.